الندوة الرفاعية

تاريخها .. نشاطها .. مرتادوها

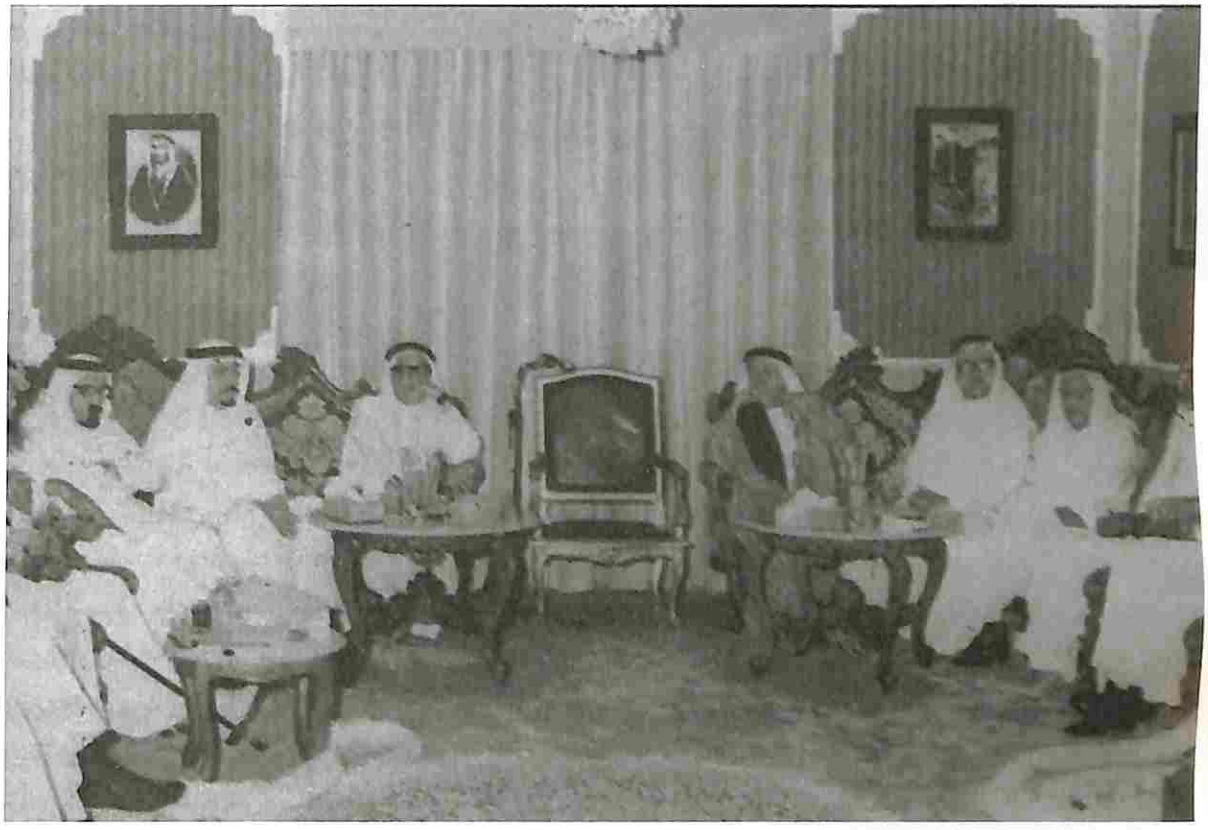

الرفاعي .. الثاني من اليمين

لئن كان الرفاعي زاهداً في نشر شعره أو النشر عنه فإنه كان أزهد في الحديث عن ندوته، وفي أن ينشر روادها شيئاً عنها، وفي أكثر من مرة ثنى عزم من أقدم على الكتابة عن عزمه.

بقلم: د. عائض الردادي
السعودية

جلسات عفوية:

وقد كرر في كل اللقاءات التي أجريت معه صحافياً أو إذاعياً أنها ليست ندوة، بل هي جلسة عفوية أو ديوانية كسائر مثيلاتها، قال في لقاء إذاعي مسجل معه مساء يوم الأحد ١٤٠٦/٣/٥هـ: «إنها جلسة أو ديوانية كسائر مثيلاتها في الرياض، وفي غيرها من المدن، وهي جلسة عفوية ليست مرتبة، كما أنها ليست مستوحاة من أية جلسة سابقة في أرجاء العالم العربي»[1].

وفي حوار صحفي في جريدة المدينة أجراه عبدالله الشمراني[٢] طرح سؤالاً هو «الصالونات الأدبية وأنت صاحب صالون أدبي مشهور ماذا تذكرون عنها ماضياً وحاضراً؟» وكان جوابه: «كلمة صالون كبيرة جداً على الجلسة المتواضعة التي تضم بعض المحبين والأصدقاء الذين يتفضلون بزيارتي في اليوم الأسبوعي المخصص للقاء، وهو لقاء أخوي لا يعطي المفهوم الصحيح لأي صالون أو ندوة أدبية بالمعنى المألوف اليوم».

بدايات الندوة

ويتابع جوابه قائلاً:

«ولقد كان لنا أعني مجموعة من هواة الأدب والأدباء في صدر الشباب لقاء أسبوعي منتظم يتم كل أسبوع في دار أحدنا وبالدور، كان يحضره أدباء شيوخ وشباب، وكانت تتم فيه قراءات أدبية، وكان ذلك في مكة، وكان يحضره من الأدباء المشهورين الأستاذ محمد سعيد العامودي، ومن أدباء الشباب أيامها الأستاذ أحمد محمد جمال، كما كانت لمجلة المنهل ندوة شهرية منتظمة تعتبر ندوة أدبية لأدباء الجيل، وقد حركت بعض هذه الندوات دنيا النشر فصدرت بعض الكتب والقصص».

هذا يعطينا معلومة مهمة وهي أن الندوة لم تكن بدايتها في الرياض بل كانت في البدء في مكة المكرمة كما أرخ من خلالها للجلسات الأدبية، أما إصراره على أنها ليست ندوة فقد استمر يكرره في كل لقاء أو أثناء جلسات الندوة حين يسمع من يسميها ندوة، وحينما رجوته في آخر أيامه أن يعطيني معلومات عنها - وبخاصة بداياتها - تلقيت منه رسالة هي آخر رسالة كتبها ولم أطلع عليها إلا بعد انتقاله إلى جوار ربه - ومما جاء فيها «... وكما تعلم بأن الموضوع لا يزال محل شيء من توقفي، ولكن مكانتكم تحول بيني وبين الإصرار، جلسة الخميسية - التي أرجو أن تبعد عنها وصف ندوة - كتبت عنها بطلب من بعض إخوتي قصة بدايتها، ولست - مع الأسف الشديد - اليوم في وضع يجعلني أكتب شيئاً، ولكن في المكتب - ولعل لدى الأستاذ كحيلان وكذلك عبده - ما يصلح للأخذ عنه».

على أي حال هي ندوة أدبية استمرت أكثر من ثلاثين عاماً وحضرها فضلاء الرجال، ولكن ماذا عن بداية الندوة في الرياض؟

عدتُ للملفات التي أحالني عليها شفهياً وخطياً في رسالته السابقة ومنها مجلة قافلة الزيت التي ذكر في رسالته أن فيها تقريراً مكبراً عنها. ولكنني لم أجد فيها شيئاً من ذلك وقد يكون في لقاء آخر[٣]، وفي لقاء أجراه معه علي حسن الفقيه لجريدة المدينة، وأرخ في ١٤٠٣/٩/٣هـ ذكر أنها بدأت حوالي ١٣٨٠هـ بعد انتقال عمله إلى الرياض[٤] وفي كلمة نشرها د. أحمد البدلي في تأبينه ذكر أنه كان يحضر الندوة عام ١٣٧٩هـ[٥].

على أنني قد وجدت مسودة لقاء - يبدو أنه هو الذي أراده - وهو مؤرخ في ١٤٠٢/٩/٢١هـ، ويظهر من شرح عليه أنه لم ينشر للشك في أنه سبق نشره، وفيه تاريخ صريح لبدايتها، وهو جواب على سؤال عن «صالون الرفاعي وكل ما يتعلق به: تاريخه، نشاطه، نوعية مرتاديه؟».

وكان نص الجواب «بدأت الجلسة عام ١٣٨٢هـ في دار صغيرة كنت استأجرتها في الملز[٦] في حي البحر الأحمر، في غريفة لا تزيد عن (٤×٥) أمتار، كان يوم الخميس من كل أسبوع هو اليوم الذي أخصصه لاستقبال أصدقائي ومعارفي، فقد كنت أعمل ليل نهار، كما هو شأني الآن، والحمد لله على نعمه الوافرة، وحينما قدمت إلى الرياض من جدة لم أكن أعرف بها إلا القليل، فكنت في حاجة إلى أن آنس بأصدقائي، وأجتمع بمعارفي.

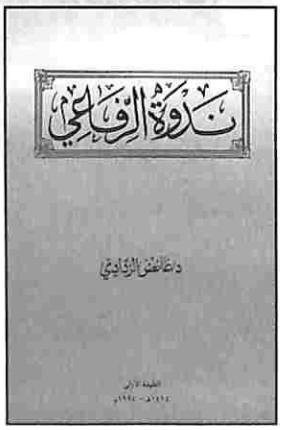

كان بين زواري عدد من الأدباء والشعراء - وكان من بينهم الأستاذ الشاعر ماجد الحسيني، وهو من أوائل رواد هذه الجلسة، والأستاذ عبدالرحمن المعمر، والدكتور أحمد خالد البدلي، والأستاذ علي العمير، والأستاذ علي بخش،

والأستاذ السيد علي فدعق، والأستاذ أحمد عمر عباس رحمه الله، والأستاذ أحمد باشماخ، والأستاذ الشاعر الكبير أنور العطار، ولا أريد أن أعدد الأسماء فذلك صعب بالنسبة لذاكرتي المتعبة، كما أنه محرج، لكنني ذكرت هذه الأسماء على سبيل المثال فقط، وهو ما تبادر منها إلى ذهني الآن، وكانوا أحياناً أكثر من أن تستوعبهم الغرفة الصغيرة، ولعل من الطريف أن أذكر الآن أن مجلة قافلة الزيت سمعتْ (بالمعيدي) فأرسلت صحفياً ومصوراً، أما الصحفي فتدبير أمره سهل، وأما المصور فقد تحير المسكين أين يقف ليصور الأشخاص المزدحمين على المقاعد القليلة في تلك الغرفة الصغيرة، فاضطر أن يصورهم بالتقسيط، إذ مستحيل عليه أن يأخذ لهم صورة كاملة، على أن الأمر لم يختلف كثيراً الآن، فإن غرفة الاستقبال الآن وبعد توسعتها، ومساحتها ثلاثةأضعاف تلك، تزدحم بالزوار، ولكنها لا تضيق بهم بل تتسع، حتى لأظنها أحياناً أنها قد صارت من المطاط.

الرفاعي يتحدث في إثنينية عبدالمقصود خوجه

والأمر الذي لم يختلف عبر عشرين سنة مضت من عمر هذه الجلسة - التي لا أسميها ندوة إطلاقاً - هو أنها لا تزال جلسة عفوية - كأي جلسة أخوية في أي بيت، لا تختلف إلا حين يدور فيها الحديث عن الأدب والفكر أو الشعر، عندئذ فقط يتحول حوارها إلى حوار فكري أو فني، وإلا تظل جلسة عادية تماماً.

إنها جلسة عفوية لا يُخطط لها ولا يُنسق، وطابعها هذا محبب لدي، أما التخطيط والتنسيق فمن شأن النوادي الأدبية الرسمية، وهي الآن كثر»[٧].

ونُشر في مجلة الفيصل في عددها (٦٣) الصادر في رمضان ١٤٠٢هـ كلام قريب من هذا ولكنه أوجز منه ولم يقطع ببدئها في عام ١٣٨٢هـ بل رجح أنه فيما يظن أنها بدأت في هذا العام.

ومن كل ذلك يتضح أن الجلسة في بدايتها كانت أخوية تجمع الأصدقاء ولذا لم يهتم ببدء تاريخها، ولكنها مع مرور الزمن وكثرة مرتاديها وغلبة الجانب الثقافي والأدبي منه وبخاصة تحولت إلى ندوة أدبية، وقد صرح بذلك في لقاء مع مجلة أهلاً وسهلاً، لا يخرج محتواه عما سبق ولكنه قال فيه: «هذه الجلسة نشأت بطريقة عفوية محضة كما يستقبل أي شخص ضيوفه في يوم معين للزيارة»[٨].

سر تعلق الرفاعي بالندوات الأدبية

وكنت أتساءل داخل نفسي لِمَ يحرص الرفاعي على عقد ندوته كل يومَ خميس، مع ما فيها من ارتباط دائم؟ ولم أجد عناء في الحصول على جواب هذا السؤال فقد وجدت سؤالاً طرح عليه في لقاء مع جريدة المدينة ونصه «ما سر تعلق معاليكم بالندوات الأدبية؟» فكان جوابه لهذا السؤال: «جلسات العلم والأدب في رأيي كتاب حي مفتوح، يشترك فيه أكثر من مؤلف، ويدخل النقد فيه عن طريق الحوار ليكون عنصراً ملازماً، وحب مثل هذه الجلسات أمر فطري طبيعي لمن شرب حب الأدب إذا لم يكن يميل إلى الوحدة والانفراد بالذات وإلا فالإنسان مدني بالطبع، وقد ذكرت فيما سبق طرفاً من الجلسات الأدبية التي كانت لي منذ

عهد الشباب الباكر، وكما تعلم فإن الجلسات الفكرية تُعد مدارس علم وأدب وإن الاستماع في الأساس كان هو وسيلة العلم الأولى، وكان التلقي هو ركيزته، وذلك قبل أن يعرف الإنسان القلم والكتابة والكتب»[٩].

تنقلات الندوة مع صاحبها حيث يرتحل

عرفت الندوة أول ما عرفتها عام ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م) عندما كان مقرها في شارع جرير بالرياض، ثم انتقلت إلى الدار التي بها (الآن) دار الرفاعي للنشر في الملز، ثم حوالي ١٤٠٣هـ انتقلت إلى حي الروضة في الرياض في دار رقمها(١٨) في شارع سعيد الماجد المحصور بين شارعي عبدالله بن رشيد شمالاً، وشارع حفصة بنت عمر جنوباً.

وكان صاحبها يفتح داره بُعيد صلاة المغرب فيبدأ الرواد في التوافد إلا أن جل الرواد لا يأتي إلا بعد صلاة العشاء حيث هو الوقت الرسمي للندوة ، أما من يأتي باكراً قبل ذلك فغالباً ما يكون لمناقشة بعض الأمور مع صاحبها.

ويمتد وقت الندوة إلى حوالي الثانية عشرة ليلاً وقد يتأخر بعض من يرغبون تداول الحوار في موضوع خاص بهم.

وعندما كان صاحب الندوة على رأس العمل كان لها رحلتان إحداهما شتاء في الرياض وأخرى صيفاً في الطائف حيث ينتقل عمله إلى هناك، وعندما تقاعد صاحبها من عمله أصبح لها ثلاثة مواطن: هي الرياض شتاء، ثم تنتقل إلى جدة (حي الأمير فواز) من قبيل شهر رمضان إلى شهر شوال، ثم إلى الأندلس صيفاً حيث يقضي شهور الصيف في سهيل (فونخيرولا) في ملقا، وهناك يحضر الندوة من يصطافون في الموعد نفسه مساء الخميس.

موضوعات عفوية.. وثلث الشعر

ولا يُحدد للندوة موضوع معين بل تأتي موضوعاتها عفوية غير أن الموضوع إذا طرح استأثر بجل الوقت وأحياناً يكون هناك ضيف زائر فيُعطى الفرصة للكلام عن الاتجاه المبرز فيه، ويعقب ذلك الأسئلة فالحوار والتعليق، ويبدأ الحوار بتعريف به يقوم به شيخ الندوة ثم يتتابع الحديث، وإن كان شاعراً ألقى بعض قصائده، بيد أن صاحب الندوة درج على جعل الثلث الأخير منها للشعر حيث يدعو الشعراء لإلقاء قصائدهم، وهذا (أي إلقاء الشعر) هو النهج الثابت في كل ندوة، أما عدا ذلك فهو يأتي حسب الظروف، وإذا طرح الموضوع أغني حواراً وتعليقاً وبخاصة أن طرحه غالباً يأتي من وجود مختص به من بين حضور تلك الليلة.

فرصة اللقاء مع المثقفين الضيوف

ويندر أن يأتي مثقف أو شخصية ذات وزن في مجال معين دون أن تحضر مساء الخميس في الندوة الرفاعية، وحسب من لم يتمكن من لقاء تلك الشخصية أن يأتي لحضور الندوة ليلتقي بها.

براعة الإدارة في حوارات الندوة

ولقد كان الرفاعي ربانا بارعاً في إدارة حوارها بالرغم من أنه يذكر أنه واحد من حضورها، وقد يطلب من غيره إدارة الحوار لكنه هو المدير الفعلي للحوار ولذا يندر أن يحصل شدٌّ أو احتداد في الحوار، ومتى ما رأى الموضوع قد استوى نقاشاً، وبدأ يخرج إلى التعصب للرأي، تدخل بشكل هادئ، وخرج به إلى موضوع آخر، يفهم منه أنه رغب نقل الحوار إلى جانب آخر، وهو بارع في صرف من لا يحسن الحوار بلطف وأدب لئلا يعكر جو المنتدى الرائع، يقول عبدالعزيز السالم عن ذلك: «ولم نشهد طيلة معايشتنا لهذا الصديق النبيل ما يمس حسن خلقه، ولو من خلال إشارة عابرة، ففي الندوة التي كان يقيمها أسبوعياً (ويحضرها صفوة من الرجال الكرام من علماء ومثقفين وأصحاب رسالة فكرية) كانت مفتوحة تماماً وأحياناً يقتحمها جهول مجهول من الثقلاء في بعض الأوقات - وهي فترات نادرة - وتكون أحاديث مثل هؤلاء الثقلاء ثقيلة مملة خارجة عن إطار الندوة، وخارجة على أسلوبها، ولكن أبا عمار - طيب الله ثراه - يحتملهم بكل مافيهم، مما لا يحتمل، ولا يبدو عليه شيء من التبرم

مما يقولون أو التجهم، وإن كان لا يقرهم على ما يقولون ولكنه يعمُّهم بحسن خلقه، ولذلك كل فرد من الحضور يرى أنه وحده موضوع الحفاوة من صاحب الندوة، وبهذه الأخلاق العالية امتلك قلوب الناس، واستولى على مشاعرهم»[١٠].

مخاطبة الشخص بما يحب

ومما لاحظته أن الرفاعي كان يحرص على مخاطبة الشخص بما يحب فهو يدعو الشخص برتبته العلمية أو العسكرية أو الوظيفية أو بالكنية ولم أسمعه يكلم شخصاً بالاسم المجرد حتى الخدم الذين لديه يناديهم بالكنى أو بالحاج فلان، وقد لاحظت مرة أنه يقدم شخصاً بالشيخ فلان فاستغربت ذلك لحداثة سنه فهمس لي جارٌ لي بأن أبا عمار علم أن هذا الشخص يحب أن ينادى بذلك.

زينة المجالس في رقي الحوار

وكانت الندوة زينة المجالس في رقي حوارها فالحوار يدور على مستوى رفيع، يتعرف من يحضره على حوارات الرجال والمثقفين وآدابها، وحسن الكلام، وحسن الصمت، ويرى بعينيه أن مجالس ذوي الفضل مدارس أدب، ومعاهد ثقافة، وأنها راحة للنفس، وواحة للوجدان، وسلوة للحزين الحيران بما يتخللها من طرائف تليق بمجالس الفضل.

وإذا ألقى الشاعر قصيدة وكان لبعض الحاضرين نقدات تلقاها بنفس راضية، لأن النقد يقدم بأسلوب راق، يجعل المنقود يفرح به، ويسعد بسماعه ويدرك أنه صدر من ألسنة صادقة لا ألسنة حاقدة حاسدة.

عطر الوداع

وإذا ما انفض الجمع تعلو وجوههم البسمات لقيهم أبو عمار عند بوابة الخروج وفي يده قارورة ليضمخ أيديهم بالعود، وهذا سر تسمية الشاعر عصام الغزالي قصيدته الوداعية للندوة «عطر الوداع».

صقل المواهب الشعرية

كان للندوة فضل في صقل كثير من المواهب، وبخاصة المواهب الشعرية التي كانت تلقي الشعر فتجد التشجيع والتوجيه ولن أبالغ إن قلت: إن بعض الشعراء كان الفضل للندوة - بعد الله - في صقل مواهبهم وتعريف الناس بهم.

في إثنينية عبدالمقصود خوجه .. الرفاعي يتحدث

اللقاء الأخير في الرياض

وفي منتصف شهر شعبان عام ١٤١٣هـ حان وقت انتقال أبي عمار إلى جدة لصوم رمضان هناك، ووعد الرواد أن الموعد بعد عيد الفطر، ولكن شاء الله أن تكون تلك الجلسة آخر جلسات الندوة الرفاعية في الرياض، وإن كانت قد عقدت في جدة خلال شهر رمضان، فقد سافر أبو عمار بعد تكريمه في نادي جدة الأدبي إلى أمريكا فإسبانيا فألمانيا للعلاج، وعاد ليحمل على الأكتاف إلى مقابر مكة، وبذلك غابت ندوة أدبية دام عمرها أكثر من ثلاثين عاماً، كانت حافلة بالعطاء وبكريم السجايا، وكانت نموذجاً لمجالس الأدب والعلم والفضل.

رواد الندوة

كان معدل حضور الندوة حوالي ثلاثين رائداً في الليلة الواحدة، وقد يزيدون قليلاً، وما أصعب أن أذكرهم جميعاً، ولكنني سأذكر منهم من خطر بالذاكرة، ولاشك أن من لم يُذكروا هم الأكثرون، وبخاصة الزوار، وسأكتفي في الأسماء التي سأسردها بالاسم مع الاحتفاظ بالألقاب أو الصفات الوظيفية أو الاجتماعية أو الأكاديمية أو غيرها، معتمداً في الترتيب على الذاكرة:

حمد الجاسر، أبو الحسن الندوي، الشاعر القروي، عمر البهاء الأميري، عبدالعزيز السالم، تركي بن خالد السديري، محمد عبده يماني، محمد أسد، أحمد الحضراني، عبدالرحمن بن يحيى حميد الدين، الحاج أمين الحسيني، حسن خالد (مفتي لبنان)، محمد محمد حسين، علي عبدالواحد وافي، أحمد عبدالغفور عطار، شوقي ضيف، مصطفى الزرقاء، بدوي طبانة، عبدالقدوس أبو صالح، يوسف عز الدين، أنور العطار، عبدالله العلايلي، أحمد بن علي المبارك، أحمد الشامي، أحمد شرف الدين، محمود سفر، راشد المبارك، عبدالله بلخير، ماجد الحسيني، عامر العقاد، محمد علي الهاشمي، إبراهيم الحضراني، زهير السباعي، معروف الدواليبي، محمد عبدالمنعم خفاجي، إبراهيم الوزير، يحيى المعلمي، محمد علي السنوسي، عزيز ضياء، علي فدعق، محمد بن سعد بن حسين، أحمد عمر عباس، أحمد باشماخ، عبدالرحمن بن فيصل المعمر، عبدالعزيز خوجه، أحمد البراء الأميري، عبدالله بامقدم، أحمد باعطب، أحمد البدلي، رفيق النيتشة، علي الخضيري، عبدالعزيز الثنيان، علي العمير، موسى أبو السعود، حيدر الغدير، أحمد باجنيد، منصور العمرو، علي بخش، عبدالعزيز الربيعي، محمود بابللي، مطيع النونو، زكي قنصل، أحمد الخاني، محمود بعاج، زاهر الألمعي، علي أحمد النعمي، عبدالجواد طائل، عبدالله الشيخ المحفوظ بن بيه، حسين جبران الكريري، محمد حسن العمري، عبدالرحمن حميدة، أحمد حسن فرحات، أسعد طرابزوني الحسيني، عبدالله الجبوري، ظهور أحمد أظهر، علي شواخ إسحاق، محمد بن عبدالله الحمدان، عبداللطيف ملين، صالح مهدي السامرائي، عثمان الصالح، هزاع الشمري، عبدالكريم يونس الخطيب، عبدالكريم محمود الخطيب، فؤاد سيزكين، المهدي بن عبود، عدنان النحوي، عبدالله عسيلان، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، عبدالرحمن السويداء وغيرهم ■

الهوامش

(١) من ملف اللقاءات التي اطلعت عليها في دار الرفاعي.

(٢) العدد ٤٢٨٢، في ٢٦ جمادى الأولى ١٣٩٨هـ.

(٣) لقاء مع الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي، قافلة الزيت رجب ١٤٠١هـ (مايو/ يونيو ١٩٨١م)، وقد أشار فيما سأورده بعد قليل إلى لقاء قديم معها.

(٤) هذا من مسودة اللقاء في ملف اللقاءات في دار الرفاعي للنشر.

(٦) الملز: حي من أحياء الرياض الكبيرة.

(٦) جريدة الرياض في ١٤١٤/٣/٢٦هـ (١٩٩٣/٩/١٢م) مقال بعنوان: أبو عمار فقيد العلم والأدب.

(٧) من أجوبة لقاء لم ينشر، اطلعت عليه في ملفات الندوة في دار الرفاعي للنشر.

(٨) أهلاً وسهلاً، الصادرة عن الخطوط السعودية (حوار مع الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي) العدد الخاص، السنة السادسة، ذو القعدة وذو الحجة ١٤٠٢هـ (سبتمبر وأكتوبر ١٩٨٢م).

(٩) رحلة في أفكار عبدالعزيز الرفاعي، جريدة المدينة، العدد ٦٧٦٦ الصادر يوم الجمعة ٤ صفر ١٤٠٦هـ.

(١٠) الرفاعي علم يختفي من ساحة الأدب، الأربعاء الأسبوعي الصادر عن جريدة المدينة في ٢٩ ربيع الأول ١٤١٤هـ، ص٥.